مظاهر التجريب وملامح التجديد في الرواية الجزائرية المعاصرة
رواية سفر السّالكين لمحمد مفلاح –أنموذجا .

الدكتور عبد الرزاق علاّ، جامعة بلحاج بوشعيب – عين تموشنت- الجزائر

تمهيد:

تظهر الرواية كخطاب أدبي يتجانس مع كلّ الخطابات المجاورة باعتبارها وقائع إنسانية مصحوبة بلحظات فارقة تساهم في دفع السيرورة التاريخية، إذ إن الحاضر الذي يشكله النص الروائي ليس إلا تجليّا لوضعيات أسهمت في خلقه مرجعيات عدّة؛ وهي كلّها مراحل تجسّدها الخطابات المتداخلة مع الرواية لتأكيد معالم الإنسانية رغم اختلاف المعطيات؛ وعليه تظهر سمة التجريب في استلهام النصوص التراثية المحليّة و العربيّة و العالمية و تطويعها داخل النص الروائي الذي يتعامل مع التراث على اختلاف مرجعياته وتنوع تسمياته.

تتجلى سمة التّجريب عند الروائيين الجزائريين في استلهام النصوص التراثية المحلية و العربية و الإنسانية و تطويعها في قالب الفن الروائي." إذ يمثل االتعامل مع التراث على اختلاف مراجعه و تشكلا ته أحد مسالك التجريب الروائي التي سلكها الروائيون الجزائريون بحثا عن أفق حداثي في الكتابة الروائية و يكشف هذا النزوع إلى توظيف التراث المحلي و العربي و الإنساني في النص الروائي عن وعي كاتبه بأن التراث هو سبيل إلى الحداثة من خلال إعادة إنتاجه و النظر إليه من زاوية جديدة،تقوم على المساجلة و المجادلة، و تتوق إلى المفارقة عبر المعارضة"[1]، فالتداخل الحاصل بين الرواية كجنس أدبي سردي و كافة الأجناس ا أدبية الأخرى يجعلها تنفتح انفتاحا رهيبا على الأنماط السردية التقليدية إذ تتقاطع الرواية مع التراث في البذور المشكلة لعالم النص و إدراك تفسير الرواية كخطاب يقوم بدلالة محاولة تفسير تلك الخطابات و النصوص كوقائع إنسانية و مدى إسهامه في دفع السيرورة التاريخية باعتبار أن الحاضر الذي يشكله النص الروائي ليس إلا تجليّا لوضعيات أسهمت في خلقه، وهي مراحل تاريخية تجسدها الخطابات التقليدية المتداخلة مع الرواية لتأكيد المعاناة الإنسانية رغم اختلاف المعطيات.

[1] بشوشة بن جمعة، اتجاهات الرواية في المغرب العربي.الدار المغاربية للطباعة والإشهار،دط 1999،ص42.

إنّ طابع التجريب في النّص الروائي سلكه العديد من الروائيين الجزائريين الكبار؛كالطاهر وطار، وواسيني الأعرج محمد ساري،بشير مفتي،عز الدين جلاوجي، السعيد بوطاجين ومحمد مفلاح وغيرهم، بحثا عن أفق حداثي في الكتابة الروائية، إذ يكشف ذلك النزوع إلى توظيف التراث الصوفي مثلا داخل النص الروائي عن وعي كاتبه بأن التراث هو سبيل إلى الحداثة من خلال إعادة إنتاجه و النظر إليه من زاوية جديدة،تقوم على المساجلة و المجادلة، و تتوق إلى المفارقة عبر المعارضة'وعندما تقرأ كتابات محمد مفلاح الروائية ، تستوقفك خصائص محدّدة لإبداعاته من جانبي الشكل والمضمون، فقد استطاع بفضل قدرته الإبداعية أن يسلك طريقا متميّزا من خلال نصوصه الروائية التي تآلفت وتمازجت واختلفت وتعددت بفضل تنوع أشكالها ومضامينها، إذ لم يستقرّ على شكل واحد في كتاباته بل راح يعمل على تطوير أسلوبه، وتقنيات كتاباته ولم يكتف بقالب واحد في رواياته "الانفجار" و" هموم الزمن الفلاقي " و من العشق والأخطار ورواية و"خيرة والجبال " و الرواية التاريخية " شعلة المايدة " وغيرها من الروايات على نسق موحّد؛ كما أنّه لم يعمل على تكريس شكل واحد في نمط الكتابة،بل وجدناه من طيلة مسيرته الروائية مغامرا لا يتردد في خوض غمار التجريب و أساليب التجديد، هادفا إلى تحقيق كيان أسلوبي يجمع بين الحداثة و منحنى التراث بنكهة عربية جزائرية خالصة؛ غير إن الإشكالية تكمن في البحث عن الصيّغ الفنية الكفيلة بتحويل التراث إلى وجه من وجوه حداثة الكتابة الروائية جماليا و فنيّا، و هو ما انتهجه الروائي محمّد مفلاح في روايته " سفر السالكين" باستلهامه لأشكال متعددة و جوانب متنوعة من التراث الصوفي الإسلامي و من القصص و الحكايات الشعبية ووظفها داخل نصه، محاولا رسم عالم روحاني شفاف يملأه النقاء ويطفو عليه الصفاء حيث شكلت التجربة الروائية عنده مجالاً ملائماً لمواقف الرفض والتضحية، كما أن التجربة الصوفية إنسانية عامة تهدف إلى تجاوز الأشياء الخارجية للوصول إلى جوهر الأشياء، أي إلى الحقيقة، وهو الهدف نفسه الذي سعى إليه محمد مفلاح في روايته-سفر السالكين-، ولعلّه قد وجد في بحثه الدائم عن الحقيقة، وتأمله واغترابه ووحدته، وانتظاره للحظة الإلهام أو الكشف . شيئاً من محنته ومعاناته واغترابه وتأمله داخل نصه الذي تجلّت فيها مظاهر وسلوكيات الشخصيات التي جنحت إلى التصوف بعدما أرّقتها الحياة .

و إذا كانت الرواية الجزائرية عموما لم تستقرّ على شكل واحد من أشكالها الفنية، فذلك يرجع إلى مجموعة من الأسباب التي جعلتها تتغير من حيث الشكل والمضمون نذكر منها :

- تمتع كاتبنا الروائيين بهاجس المغامرة الفنية وذلك بالعمل على تطوير أدواتهم الفنية .
- قدراتهم الفنية وموهبتهم الإبداعية على تنويع بنية النص الروائي وقالبه الفني .
- الانتقال بين الأنواع الأدبية بسهولة و يسر، مع الوفاء لمواقفهم الفكرية و توجهاتهم الإيديولوجية.
- رؤيتهم الشاملة لقضايا الكون و الإنسان و الحياة والوجود .[2]

غير أن الإشكالية تكمن في البحث عن الصيغ الفنية الكفيلة بتحويل التراث إلى وجه من وجوه حداثة الكتابة الروائية جماليا و فنيا، و هو ما ذهب إليه الطاهر وطار و ذلك باستلهامه لجوانب متعددة و متنوعة من التراث و من قصص و حكايات شعبية،فوظف الأسطورة للتعبير عن التهافت السياسي في جزائر الستينات و مطلع السبعينات.

لقد توجهت العديد من النصوص الروائية الجزائرية المعاصرة إلى التصوف بحثاً عن عالم روحاني شفاف يملأه النقاء ويطفو عليه الصفاء ، وذلك لارتباط التجربة الروائية المعاصرة بالتجربة الصوفية، إذ إن هنالك علائق وشيجة، بين كلتا التجربتين الإبداعيتين، الصوفية والمعاصرة، حيث شكلت التجربة المعاصرة مجالاً ملائماً لمواقف الرفض والتضحية، كما فعلت التجربة الصوفية من قبل، كما أن التجربة الصوفية إنسانية عامة تهدف إلى تجاوز الأشياء الخارجية، للوصول إلى جوهر الأشياء، أي إلى الحقيقة، وهو الهدف نفسه الذي تسعى إليه التجربة الروائية المعاصرة.

ولعلّ الروائي المعاصر قد وجد في بحثه الدائم عن الحقيقة، وتأمله واغترابه ووحدته، وانتظاره للحظة الإلهام أو الكشف شيئاً من محنته هو، في معاناته ومكابدته واغترابه وتأمله.، في هذا الواقع. وتجلت مظاهر التصوف في رواية سفر السالكين لمحمد مفلاح في مظاهر وأفعال وسلوكيات الشخصيات التي جنحت إلى التصوف بعدما أرقتها الحياة، ومن ثمة راح يستثمر في النصوص التراثية التي تزودنا بالمعلومات التي تمكننا من فهم النص الجديد الذي راح يبني معالمه وفق النصوص القديمة ولكن في نمط سردي جديد .فكل نص جديد توجد وراءه مجموعة من النصوص الغائبة تساهم في بنيته وتعمل على تحقيقه ، ومسألة تقاطع النصوص المرجعيّة قد حقّق انتشارا واسعا في الدراسات

[2]- ينظر: فسطول فاطمة،وطار من واقعية الكتابة إلى تجريب روائي جديد، نقلا عن علي ملاحي- هكذا تكلم الطاهر وطار، مقامات نقدية وحوارات
مختارة، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ،دط-2011، المقام النقدي الثالث، ص46.

النّظرية والتطبيقية باعتباره مفهوما إجرائيا في تحليل الخطاب الأدبي، لذلك بدا اهتمام النقاد والدارسين العرب بهذا المفهوم، و ذلك لأهميته في تحليل الخطاب الأدبي و باعتباره مفهوما يقوم على تداخل النصوص و تناسلها فيما بينها، بمعنى أنه ليس هناك نص لا يعتمد على نص آخر، ومجموعة من النصوص"فالنص المنجز ليس إلا تجميعا لنصوص سابقة، يعيد تشكيلها من منظورة ليقدم نصه الجديد3.ومن ثمة يظهر توظيف الموروثات والنصوص القديمة التي تحدث تفاعلا خصبا ينجرّ عنها مناخا مغايرا للأصل لحظة تداخل عناصر النص الغائب مع النص الحاضر "فالكاتب ليس إلا معيد لإنتاج سابق بنوع من الحرية ، و هو رفض لكل أصل أصيل ،فليس هناك معني أولي وكل نص أصلي هو نص علي هامش نص آخر"4.

❖ **التجربة الصوفية: بحث عن أفق كتابة جديدة :**

لقد توجهت النصوص الروائية المعاصرة إلى التصوف بحثاً عن عالم روائي جديد؛ عالم طاهر روحاني شفاف فالتصوف كظاهرة دينية وإنسانية استثمر فيها المبدعون المعاصرون وجعلوها كموضوع لنصوصهم الروائية " وذلك لارتباط التجربة الروائية المعاصرة بالتجربة الصوفية، إذ إن هنالك علائق وشيجة، بين كلتا التجربتين الإبداعيتين، الصوفية والمعاصرة، حيث شكلت التجربة المعاصرة مجالاً ملائماً لمواقف الرفض والتضحية، كما فعلت التجربة الصوفية من قبل، كما أن التجربة الصوفية إنسانية عامة تهدف إلى تجاوز الأشياء الخارجية، للوصول إلى جوهر الأشياء، أي إلى الحقيقة، وهو الهدف نفسه الذي تسعى إليه التجربة الروائية المعاصرة، كون الروائي المعاصر قد وجد في بحثه الدائم عن الحقيقة، وتأمله واغترابه ووحدته، وانتظاره للحظة الإلهام أو الكشف . شيئاً من محنته هو، في معاناته ومكابدته واغترابه وتأمله في هذا الواقع الذي أصبح لا يشعر فيه الإنسان بالراحة والطمأنينة، وهو ما رسمته رواية "**سفر السالكين**" من معاناة أبطالها وشخوصها الروائية من خلال حياة يومياتهم وطريقة عيشتهم القاسيّة ، وقد عبّرت عن المجتمع الجزائري عموما، والواقع المعيش في منطقة غليزان تحديدا، إذ تناول "محمد مفلاح" في روايته هواجس الشيخوخة والتقاعد

---

[3]- ينظر: نور الدين السد،الأسلوبية و تحليل الخطاب –دراسة في النقد العربي الحديث،ج1دار هومه، دط-2010، ص 104.

[4]-عبد العالي بشير.التاص في الشعر العربي،رسالة دكتوراه –مخطوط- جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان ،2000-2001 .ص49

التي عاشها سبعة أصدقاء كانت تجمعهم علاقة صداقة، كانوا يقيمون مجالسهم اليومية حول مقعد قديم بساحة عمومية بمقر إقامتهم، يحمل ذكريات عن ماضيهم وكأنه شاهد عيان على تغير أحوالهم، وكانت اهتمامات هؤلاء المتقاعدين مختلفة في الحياة حدّ التناقض، فكل شيخ كان يبحث عن حريته، إما تجديد حياته مع امرأة صغيرة أو التحليق في عالم يسمو به عن واقعه الحالي لكنهم في النهاية يحلقون من دار الدنيا بهمومها إلى دار الآخرة سابحين في فضاء الهدوء والاستقرار.

تتوزع الرواية على ثمانية فصول، كل فصل من الفصول السّبعة يحمل عنوان شخصية، أما الفصل الثامن والأخير فكان بمثابة رحلة سيّاحية أخيرة تحمل في ثناياها سفر المتصوفة إلى عالم أرحب، حيث أرادها الروائي كخاتمة لأحداث الرواية تحمل رؤية إستشرافية لها العالم الذي يجب أن يتخلى فيه الإنسان عن ملذات الحياة لعيش حياة كريمة .

تنطلق أحداث الرواية في فصلها الأول بالحديث عن شخصية "**الهاشمي المشلح**" هذه الشخصية التي تظهر بأنها شخصية محورية إلى جانب ستة شخصيات أخرى بارزة في العمل الروائي، يعلن من خلالها عن رفض الواقع والتذمر منه بوصفها شخصية قلقة ومضطربة ومنغلقة على نفسها، بعدما تحصلت على التقاعد المسبق إذ سئمت من العمل مع زملائها، وقد صارت تعيش حياة العزلة: "أصبحت بعد إحالتي على التقاعد المسبق شخصا متوحدا مهموما، ولي رغبة دفينة في الانتقام من كل شخص أعتقد أنه أساء إلي في أوقات الشدّة ..."[5] يقدّم لنا السارد شخصيته على أنها شخصية تائهة لم تستطع فهم ما يجري حولها من وقائع وأصبحت تعيش واقعها المر،ممّا ولدّ لديها شعورًا بالعجز عن مواجهة أعباء الحياة الجديدة بعد أخدها للتقاعدمن وظيفة مصلحة الشؤون الاجتماعية. وبعد مدّة أصبح يحتك بالحاج "العربي الشيلي"، حيث تأثر بسلوك هذا الشيخ المنتمي إلى الطريقة الخضرية، وبمرور الوقت أصبح يستهويه التصوف أكثر ثم ينتهي به مساره الجديد إلى عالم السيّاحة في أرض الله وزيارة الأولياء ومعالمه حتى صار شيخا متصوفا.

أمّا في الفصل الثاني تظهر شخصية "بصافي المايدي" الذي كان له تأثير كبير في تغير حياة شخصية "الهاشمي المشلح"، الذي كان يفخر بحبه للأغنية البدوية والشعر الشعبي.

[5] محمد مفلاح، سفر السالكين، دار الكوثر، الجزائر، ط-1، 2014، ص: 7.

والفصل الثالث قد خصّص للحديث عن شخصية "هواري البني "، هذه الشخصية المتصارعة في ذاتها بطرح إشكالات وتساؤلات حول المصير المستقبلي للجيل الصاعد، وتحسره من هذا العالم الذي هيمنت عليه النزعة الاستهلاكية، وهذا ما ورد على لسانه في قوله: "وهل انتهى التاريخ فعلا؟ يا لها من أكذوبة صار يرددها المثقفون في كل المناسبات! عجبا كل شيء تغير ...؟"[6] فهو يتعجب لأمر هؤلاء وتغير موقفهم ضمن عواصف التيارات الفكرية، إضافة إلى موقفه السلبي من التصوف، ودعوته الصريحة لزميله الهاشمي المشلح والحاج العربي الشيلي إلى التخلي عن هذا الجنون، وهذا ما يحيلنا عليه قوله: "... فمال إلى التصوف ولازم الحاج العربي الشيلي وصار منشغلا بالحضرة الصوفية وزيارة القبب، والسياحة عبر البراري، أصبح من جماعة الدراويش السياح يا له من مجنون!"[7].

أمّا في الفصل الرابع نجد شخصية "الحاج العربي الشيلي" وانتمائه إلى الطريقة الصوفية الخضرية، وإيمان هذا الرجل بكل ما هو صوفي تراثي روحي، وحلمه بتغيير هذا الواقع وأن يرى في مستقبله الزاهر حضرة صوفية وفقط حيث يقول: "لو كانت لي القدرة على تغير نظام هذا المجتمع الصاخب لجعلت الدنيا كلها حضرة صوفية تليها أخرى، لا يتوقف فيها الذكر الجميل حتى يغتسل الناس من كل أدرانهم"[8].

هذا الشيخ مؤمنا كل الإيمان بالصوفية، ولازمه في هذا "الهاشمي المشلح" الذي لم يفارقه يوما ولا في أي حضرة صوفية، حتى صار من أكثر الرجال انتسابا إلى الطريقة الخضرية الفاتحوية (نسبة إلى محمد الفاتح). ونجد أفكار هذه الشخصية واضحة حول مواقف الشخصيات الأخرى في توجهاتهم واعتقاداتهم، حيث تمنى أن يتحرر رابح اللمة من السلفية، وأن يسافر في لحظة صوفية، وأن يهجر بصافي المايدي أغاني الغزل، وأن يتخلى هواري البني عن كتب المفكرين الذين يعتقدون أنهم سادة الكون، وأن يتخلى عاشور الزكري عن كتابة تاريخ العائلة.

أما الفصل الخامس فنلتقي بشخصية "رابح اللّمة" تلك الشخصيته السّلفية التي تعاني مشاكل عويصة داخل الوسط العائلي، وهذا ما جعله متوترا وقلقا ومخنوقا نفسيا، وفي ظل هذا الجو التعيس كان همه الوحيد تجديد حياته بالزواج من مطلقة جميلة، مما يحيل على ذلك في الرواية قوله: "لولا خوفي من زوجتي وأولادي لخطبت

---

[6] الرواية، ص: 47.

[7] الرواية، ص: 50.

[8] الرواية، ص: 61.

المطلقة من والدتها عيشوش.."[9]. غير أن زوجته حالت دون ذلك فكانت دائما له بالمرصاد، ولمس معارضة عاشور الزكري على زواجه بالمطلقة بشكل واضح وصريح وموافقة بصافي المايدي وهواري البني على هذه المغامرة التي من شأنها تجديد حياته من جديد، كما نجد رابح اللمة من أشد المنتقدين لزيارة القبب القبور ويعتبرها من المحرمات.

تطرق الروائي في الفصل السادس إلى "شخصية عاشور الزكري" المعلم المتقاعد، هذا الرجل المتعطش لكتابة بحث تاريخي وثائقي حول تراث عائلته التي اعتبرها ذات أصول عريقة، ومما يحيل على ذلك قوله: "فقد كنت مهووسا بعمل ضخم عن عائلتي التي أسهمت في إثراء تاريخ الجزائر الثقافي، وما زاد حماستي لهذا البحث تجاهل المؤرخين الجزائريين لمكانة عائلتي الشهيرة، وانجازاتها العلمية..."[10]، أما الهاشمي المشلح فقد دعاه للكتابة عن الأولياء والصالحين. في آخر المطاف قرر التحرر من هواجس كتابة التاريخ بعد الفشل فيه، بحرق محفظته البنية بما فيها من وثائق وأوراق، معتبرة هذا الفعل ردا على تلك المعارضات، وعكف فيما بعد على حفظ القران الكريم.

وفي الفصل السّابع يتعرض إلى شخصية "تهامي الفارس" الذي فقد حلمه في ممارسة الفروسيّة، بعد تعرضه لحادث أليم حال بينه وبين العودة للفروسية، التي كان يراها أهم شيء في حياته كلها، كان مهتما بالثقافات الشعبية واحتفالاتها بالمنطقة التي يقطنها. نتعرف من خلال هذه الشخصية على مواقف وآراء المتقاعدين الآخرين، حول قضايا الحياة التي يعالجونها يوميا. نجد من بين معارضي تهامي الفارس حول الفروسية هواري البني الذي كان يسخر من الخيل والبارود في ظل زمن الصواريخ والثقافة، أما أهم الذين وقفوا إلى جانبه في مغامرة الفروسية شخصية بصافي المايدي، بقي تهامي الفارس متمسكا بحلم العودة للفروسية، إلى غاية دخوله المستشفى لإجراء العملية الجراحية، ومما زاد في صبره وتمسكه بتلك الآمال مواساة أصدقائه له.

الفصل الثامن والأخير اختار له الروائي عنوان السيّاحة الأخيرة وهو عنوان إيحائي للدلالة على الأمكنة التي زارها الهاشمي المشلح كالأضرحة، والزوايا والمساجد هو بمثابة خاتمة لأحداث الرواية، والمفاجئ في الأمر أن الروائي يكسّر أفق توقعات القراء بالإعلان الصريح عن وفاة الأصدقاء الستة للهاشمي المشلح، ويبدو أن هذا ما كان يوحي به عنوان الرواية سفر السالكين، الذي تجسّد في ثنايا المتن السردي للرواية، مصطلح السالكين

[9] الرواية، ص: 71.

[10] - الرواية، ص: 78.

من منظور الثقافة الشعبية الجزائرية يوحي إلى الصالحين الذين طلقوا الدنيا، وكأنهم هم الفائزون برحيلهم عن مشاق الدنيا، وهذا ما أحال عليه المتن الروائي: "في اليوم التالي زرت الساحة الكبرى وقلبي يخفق بفيض من مشاعر المحبة لأصدقائي الستة المتوفين خلال موسمي الصيف والخريف الفائتين"،[11] كما كان الكاتب في بعض الأحيان يطعم روايته بأغاني وأبيات شعبية من الشعر الملحون لفنانين من المنطقة، لتنمية الأحداث ولسد بعض الثغرات التي يحدثها السرد المتتابع.

تظهر معالم التجديد في رواية "سفر السالكين" من خلال مواقف وخطابات الشخصيات الروائية الموظفة داخل النّص الروائي، والتي حاكت التراث الصوفي وتشبّعت بقيّم وسلوكيات المتصوفة واتبعت طريقهم؛ فقد استطاع الروائي محمّد مفلاح تحميل نصه الجديد العديد من المعاني والدلالات الجديدة التي تبرز نمطية وحياة الشخصيّات المتصوفة الحاملة لمعتقدات المتصوفة،وذلك بإتباع المنهج الصحيح الذين يسلكه العبد للوصول إلى محبّة الله ، عن طريق الاجتهاد في العبادات وترك المنكرات واجتناب الموبقات ، وتطهير القلب من الخرافات وتربية النفس وتزكيتها حيث ترسم هذه الرواية صورا من النفحات الإيمانية التي تنتاب النفس البشرية حينما تنازعها مُثُل الصفاء والنقاء فتسمو بها ، كما نشهد محطات مقابلة لذلك، حفلت بالكثير من المتاعب والمصاعب في سبيل تحقيق الراحة والطمأنينة والاستقرار، لتهتدي في الأخير إلى أن الخلاص يكمن في السّفر عبر طريق التصوف الذي يقوم على التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسوله، وهو سبيل النجاة لكلّ إنسان عاقل يؤمن بأن الدنيا متاع الغرور ومن هنا شكل هذا المقوم الروحي بعدا عالميا صالحا للإنسانية جمعاء .

❖ **معالم ومعتقدات الصوفية تأثث عالم النص الروائي:**

التصوف هو طريقة سلوكية يسلكها الفرد، فيتزهد و يتقشف و يدعو إلى الفضائل لتزكوا نفسه و تسمو روحه ويسير على طريقة قوامها التخلي عن ملذات الدنيا وترك الرذائل و التحلي بالفضائل لتزكوا النفس و تتمكن من الاتصال بالله تعالى، سالكين مجموعة من المبادئ والمعتقدات و الآداب التي يتأدبون بها في حضرتهم و خلواتهم، ويجب على المتصوف التضرع للخالق وإتباع نهج الرسول صلى الله عليه وسلم وطريق الحق لنيل ثواب الله في دينه ودنياه . ونجد رواية سفر السالكين قد حفلت بالنزعة الصوفية مجسدة مجموعة من المظاهر التي تعتبر من طقوس ومعتقدات المتصوفة مثل: زيارة

[11] - الرواية، ص: 101.

القبور والأضرحة، الغلو، الخلوة، السفر، الكرامة... وغيرها وهي كلها معالم أثثت معالم النص الروائي المدروس:

- **زيارة القبور والأضرحة:**

إن زيارة القبور والأضرحة والتبرك بالأولياء من الأمور المتوارثة عند المتصوفة، فهم يقدّسون قبور الرجال الصالحين ، ويواظبون على زيارة قبور الأولياء الصالحين ، فيصبح قبر هذا الولي مزارا من طرف الناس، وتقديس القبور له بعد تاريخي ضارب في القدم.وقد أورد الروائي محمد مفلاح العديد الملفوظات السردية كشواهد ، يتجلى من خلالها تقديس القبور وبناء القبب فوق أضرحة الأولياء، حيث يقول: ".. صار ينتقل من حضرة صوفية إلى أخرى، ومن زيارة ضريح إلى آخر."12 و يضيف قائلا : " زيارتهما لضريح سيدي واضح بن عاصم (...) زيارة أضرحة الصلحاء وكراماتهم (...) زيارة القبب والقبور."13 و أيضا قوله: ".. عبادة القبور التي يتخذها الناس أوثانا، بعدما شيدوا عليها القصور، ورفعوا فوقها القباب."14 وكذلك قول الروائي: " أتعتقد أننا نعبد القبور وأضرحة سادتي الأولياء الصالحين."15

إن هذه المقاطع السّردية التي ذكرها السارد تبيّن ظاهرة تقديس القبور عند الصوفية، وفي الديانة الإسلامية يوجد احترام للموتى ولقبور الرجال الصالحين طلبا للبركة وليس تقديسا كما عند بعض المذاهب والديانات الأخرى.

- **الغلـو**:

يعدّ الغلو معتقدا من معتقدات الصوفية، والذي يعني المحبة المفرطة للأئمة والمشايخ ، وبعد ظهور الإسلام ظهرت محبة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بعدم مخالفة أوامره وإتباعهوالإقتداء بسنته، ولكن المتصوفة يغالون أحيانا في تلك المحبة لشيوخهم لتصل إلى درجة التقديس والعبودية " فالمحبة في نظر المحبين بأن يضع المحب أفعاله ونفسه وماله ووقته لمن يحب منحة منه له ،كما تقتضي من المحب أن يمحو من القلب كل شيء سوي المحبوب وهذه كمال المحبة ".[16] وقد جسّدت الرواية تلك السولكيات التي تعكس لنا مظاهر الغلو أو المحبة الزائدة لشيخ

---

[12] - الرواية، ص: 37.

[13] - الرواية، ص:41.

[14] - الرواية، ص: 42.-

[15] -الرواية، الصفحة نفسها.

[16] - عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي القاهرة، ط1، 1999، ص105.

الطريقة. يقول الروائي على لسان شخصيته: "ركضت نحو الشيخ الجليل سيدي محمد الفاتح (...) قبلت عمامته وكتفه اليمنى، وقد لامست لحيته المخضبة."17 فالركض علامة على تعطش المريد لتقبيل شيخه وكذا إلى الاحترام الكبير والمحبة التي يحملها له في قلبه. و ذكر الروائي لكلمة "سيدي"، وأيضا تقبيل العمامة والرأس فهذا كله يدل على الاحترام الزائد والمحبة لأن تقبيل الرأس يكون للوالدين لأن برهما عظيم ودرجة محبة المريد لشيخه عند المتصوفة ترتقي إلى درجة محبة الوالدين أو تزيد؛ فالمريد يخضع لشيخه الذي يراه بأنه أعلى منه درجة ورفعة ومقاما عند الله ، ممّا يجعله يتسم بالخضوع الذي يصل إلى درجة التقديس فالولي لدى المتصوفة " له وظيفة كليفية لا يمكن الفكاك منها، شأنه في ذلك شأن النبي إلا أن الصديق أو الولي يلتزم دائما بهدى النبي"[18]. حيث إن المريد يذلل نفسه أمام شيخه وكأنه هو الذي أنار له الطريق بعد أن كان في ظلمة، وبعد أن كان كالأعمى لا يرى دربه، ويقول السادر على لسان شخصيته : "صراحة أنا كنت غارقا في عالم التفاهة جعلوني أتذوق الحياة."19.

ليضيف قائلا: "قبلت عمامته وكتفه اليمنى، وقد لامست لحيته (...) حاولت لثم يده .."20 إن مثل هذه السلوكيات الصادرة عن المريدين تؤدي إلى التقديس (تقديس الشيخ) والرفع من مكانتهم، إضافة إلى أنه ممنوع الخطأ على المريد أمام شيوخه فيجب أن يكون أكثر حذرا في تعاملاته معهم.

- **<u>الخلـوة</u>**:

في نظر المتصوفة الخلوة شيء ضروري للسالك حتى يقطع العلائق التي تشغل القلب عن التوجه إلي حضرة القدس، فيحبذ العزلة و يؤثر الوحدة، فالولي الطاهر كان له طابق مخصص له "الطابق السابع خلوتي وطريقي إلي حبيبي "[21].فالخلوة عند الصوفي هي معبر الوصول إلى الله تعالى و معرفته حق المعرفة

إن الخلوة سلوك أو فعل يقوم به الصوفي ليمحو وينزع ويتجرد من كل الشوائب لتحرير نفسه من ذنوبها وسيئاتها. والخلوة تقرب هذا المريد من خالقه لان نيته في خلوته هي

---

[17] * الرواية، ص: 66.

[18]–سهيل بن عبد الله التشري من التراث الصوفي تحقيقي مُحَّد كمال جعفر ج 1،دار المعارف مصر، ط 1– 1974 ص 289 .

[19] - الرواية، ص:38.

[20]- الرواية، ص: 66.

[21] – الرواية ص21

تنقية النفس وإبعادها عن الشهوات، وقد كان الرسول صل الله عليه وسلم يختلي بنفسه في غار حراء واتاه الوحي وهو داخل الغار،وكان محمد خير خلق الله يصعد بأقدامه الطاهرة متحديا صلابة حجر الجبل وذلك للوصول إلى الغار والجلوس داخله متعبدا لبعض الوقت وبعيدا عن قومه.

وقد أشار الروائي إشارة صريحة للخلوة، حيث ذكر على لسان شخصية-الهاشمي المشلح-: " وانتقلت إلى الخلوة الشهيرة بالعبادة. دخلتها مستعينا بضوء هاتفي المحمول. وجدتنفسي وحيدا في الخلوة الهادئة. جلست على تربتها الرطبة، ثم قرأت بعض السور القصار من القرآن الكريم. قضيت وقتا طويلا متأملا حياتي الجديدة."22

في هذا المقطع يصف لنا –الهاشمي المشلح- كيفية دخوله إلى الخلوة، ويظهر من حديثه أنها مظلمة نوعا ما لأنه استعان بضوء هاتفه المحمول لينير هذا المكان. والخلوة ليست مكانا واسعا، بل هي ضيقة نسبيا وحسب وصف الهاشمي للخلوة يتبين أنها مكان عادي، وأن تربتها رطبة فهي ليست مكانا للزينة بل هي مكان للعبادة وذكر الله وقراءة القرآن وهي مكان للتأمل.

كما استعمل في روايته مصطلح العزلة مرادفا للخلوة وهو حيث يقول: "فالعزلة تحيي القلب وتنقيه من كل دنس، أبعدتني عن مخالطة الخلق وأرشدتني إلى طريق المحبة.لا شيء اليوم أصبح يخيفني أو يقلقني في هذه الحياة التافهة. أحببت الوحدة كما أحببت الجوع ..."23. أشار الروائي في هذا المقطع السردي إلى الخلوة بذكره للفظة العزلة التي تحيي القلب وتنقيه من كل دنس كما قالت هذه الشخصية الصوفية – الهاشمي المشلح- ، حيث ودع هذا الأخير أصدقائه الستة بعدما ماتوا جميعا.

- **<u>السفر والسيّاحة في البراري:</u>**

هذا الفعل متداول عند الصوفية، فهو متنفس للصوفي وراحة لنفسه التي تبحث عن الاستقرار والعبادة والإيمان والتعلم، ومادام أن بداية الصوفية كانت اقتداء بالنبي محمد صل الله عليه وسلم فقد يتأثر الصوفي برحلة

والسفر يدلّ على البحث والاكتشاف، والتجديد والتغيير وما إلى ذلك ، والكاتب محمد مفلاح في روايته يذكر لنا الشخصية الصوفية الهاشمي المشلح الذي كان يسافر مع الحاج العربي الشيلي تاركا عائلته متجها للسياحة وزيارة قبب الأولياء وصعود الجبال من

[22] الرواية، ص: 95.

[23] -الرواية، ص :103.

أجل التبرك بمقامات الأولياء وكان مداوما على حضور الحضرة الصوفية، وضاق حلاوة الخلوة الصوفية التي طهرت قلبه من الأدران.

وقد أشار محمد مفلاح إلى السفر في هذا الشاهد: "عشق السياحة في البراري ... ثم مال إلى التصوف وحلقات الزوايا وعشق السياحة في البراري."24، ويقول أيضا في الشاهد الثاني" السياحة عبر البراري"25 ،فالسفر والسياحة أو الترحال له دلالة إيجابية فالتنقل تجديد لحياته وبعث للطمأنينة في نفسه، ويفتح له آفاق ويتعرف على ثقافات وأماكن ما كان ليعرفها لولا تحركه، والصوفي له سفران، سفر عادي تمثل في التنقل إلى الزوايا وزيارة المشاهد وأماكن أخرى، وسفر روحي حيث يبقى الجسم وتسافر الروح وتسبح في الأعلى كالطيور المعلقة في السماء، يقول الروائي:" ..فرأيت خلال تلك اللحظات نفسي وهي تسبح في السماء بين أسراب طيور بيضاء صغيرة الحجم."26

- **<u>لمكوث في الجبل وتعذيب الجسم:</u>**

هذا المظهر نوع من العبادة تمثل في مجاهدة الجسم لإتعابه، فيرهق المريد جسمه بالسفر والسهر والصوم أو صعود الجبال والمكوث فيها متحديا كل مخاطر الجبل، والجبل يدل على الصبر والتحمل والشدة لأن ظروفه صعبة جدا. وبالرغم من صعوبة الكهوف والغيران إلا أن الماكث فيها يجد راحة تبعده عن صخب المجتمع الذي ينتمي إليه ويجد الهدوء والسكينة، وينسى للحظات هذه الدنيا الفانية ويتطلع إلى كيفية الوصول إلى الله بقلب سليم. ويحيلنا هذا المظهر (المكوث في الجبل) إلى قصة أصحاب الكهف الذين صعدوا إلى الجبل ومكثوا في كهفهم ثلاثة مائة وتسعة سنوات، هم فتية لا يعلم عدتهم الا الله تعالى، هربوا من حاكم مسيحي ظالم أراد ان يردهم عن دينهم وفروا من قوم كانوا يعبدون الأصنام لأنهم آمنوا بالله الواحد القهار وناموا في الكهف سنين عددا وبذلك نجاهم الله من الحاكم المستبد.كما يشير الروائي في بعض المقاطع التي تبين نوعا من المجاهدة الجسدية، ويقول الهاشمي عن زيارته لوالدته: "لما وصلت مدينتي، زرت والدتي(...)، ماذا جرى لك يا ولدي؟ وجهك شاحب وشعرك غزاه الشيب. ثم وضعت تيمناها على جبيني وهي ترجوني أن أستريح قليلا."27

---

[24] -الرواية، ص:35.

[25] - الرواية، ص:65.

[26] - الرواية، ص: 95.

[27] - الرواية،ص:99.

الشاهد الأول يبين لنا نوعا من مجاهدة الجسد، فالتنقل الكثير بين الأضرحة يتعب الصوفي ويرهقه. والشاهد الثاني يبين لنا أن الهاشمي المشلح تلك الشخصية الصوفية أرهق بدنه كثيرا حتى أن والدته لاحظت ذلك عليه عند عودته إلى المنزل بعد أسفاره الطويلة إلى أضرحة الأولياء، فلاحظت أن وجهه شاحب ورأسه غزاه الشيب، وكانت تترجاه أن يستريح قليلا، لأنها تعلم أنه مرهق كثيرا وهذا الإرهاق عاد بالسلب على جسده.

الكرامات:

هي أحداث وخوارق تحصل لدى المتصوفة ككرامة من عند الله ،وهي حالات من الخوارق عادة ما تكون بمثابة تضخيمات، فيبدو أصحابها مهيئين بقدرات و طاقات جسدية، ونفسية لا تتوفر في غيرهم، بل يتمتع بها الولي الصوفي فقط، فهي تحصل الكرامات إلاّ لعباد الله المتّقين الذين يصلون إلى درجة الأولياء. " فالعبد إذا أراد أن يكون وليا لله فلابد له من العمل بالمأمورات و الانتهاء عن المنهيات، والمحك الذي يتعين عليه في كل هذه الأعمال هو ما دلت عليه الشريعة الغراء. لهذا حق قول بعض الصوفية أن الولي الحق هو من لا يقع منه تقصير في أحكام الله عز و جلّ في جميع أحواله".[28] ولا تكون الكرامة لأي شخص عادي بل تكون للأنبياء أو الأولياء، والمتصوفة يعتقدون أن الله خصّ بعض أوليائه الصالحين والصادقين في الطريق بالكرامة، وهؤلاء الأولياء قد يقومون بأشياء خارقة أو يسمعون أصوات لا يستطيع سماعها شخص آخر. أو تتراءى أمامهم صور لا يمكن مشاهدتها إنسان آخر أن يراها، فالكرامات لحظة حدوثها تقترب من المعجزات. وقد أشار الروائي محمد مفلاح في الرواية إلى كرامة الأولياء على لسان شخصية "الهاشمي المشلح" متحدثا عن الولي الصالح "امحمد بن عودة" حيث يقول: "إنه نجل سيدي يحي الصغير (...) الباي محمد بن عثمان بني مشهد الولي الصالح الذي اشتهرت ولايته في البلاد حتى أمته الزوار من كل واد، ذي الكرامات المتصلة على ممر الأحيان والبركات التي شهد بها العيان والفضائل المشهودة."29هذا الولي له كرامات كثيرة، وكرامته يشهد بها الكثير من الناس الذين عاشوا في زمنه ورأوا كراماته وفضائله على الناس الذين كانوا حوله، ويوجد مقام هذا الولي بمدينة وهران. وذكر الروائي الكرامة في موضع ثان من الرواية على لسان العربي الشيلي الذي يقول: "كم أحب شيخي

[28]– د. أحمد محمود الجزار، دراسات في التصوف – فخر الدين الرازي و التصوف –،دط–دت – ص 125.

[29]- الرواية، ص: 94.

صاحب الكرامات المعلومة."30 يتكلم الحاج العربي الشيلي هنا عن "سيدي محمد الفاتح" الذي التقى به وركض نحوه لتقبيل عمامته.

الكشف:

وهو إظهار أصل الشيء، ويكون الكشف عند الصوفي يكون بالقلب وهو أن يعلم أو يرى أو يسمع أشياء لا يراها أو يسمعها غيره. والكشف الصوفي يكون لبعض المتصوفة لا كلهم، كأن يكون حلم مثلا أو رؤية وتتحقق. فالكشف إذا يحدث ببصيرة المريد وليس ببصره أي أنه لا يكون معنويا بل حسيا.وقد أورد الروائي محمد مفلاح في مقاطع سردية تبين لنا الكشف الذي يحدث عن طريق الخلوة. يقول الهاشمي المشلح: "وانتقلت إلى الخلوة الشهيرة (...) قرأت بعض السور القصار من القرآن الكريم (...) فجأة غفوت فرأيت خلال تلك اللحظات نفسي وهي تسبح في السماء بين أسراب طيور بيضاء صغيرة الحجم، ثم احتضنتني غيمة تحولت إلى أمطار غزيرة، ثم أيقظتني نسمة باردة وبخفة نهضت وغادرت الخلوة وأنا في غاية السعادة لمت نفسي على غفلتي السابقة، كيف قضيت حياتي الماضية بعيدا عن هذه المعالم التي تشحن النفس بمشاعر قوية تسافر بك إلى ملكوت الصفاء؟"31 إن الرؤية نوع من أنواع الكشف، ولذلك فان الهاشمي المشلح عند دخوله للخلوة وقراءة القرآن والتأمل، كانت هذه الأفعال سببا في حدوث الرؤية حيث رأى نفسه تسبح في الفضاء مع أسراب طيور بيضاء، ونلاحظ أن هذه الرؤية إنما هي الهام لأن الإلهام يفهم منه ترغيب أو ترهيب، والهاشمي المشلح عندما استفاق لام نفسه عن حالته وغفلته التي كان فيها وكأن هذا كان ترهيبا أو نهيا عن حياته السابقة التي كان قلبه غافلا فيها عن هذه المعالم التي تشحن النفس بمشاعر قوية.

خاتمة :

بعد عرضنا هذا نخلص إلى مجموعة من النتائج نجملها في النقاط الآتية:

1. لقد سعى الكاتب "محمد مفلاح" من خلال روايته -سفر السالكين- هذه أن يخلق جوًا روحانيا نقيّا وذلك باشتغاله على الحدث الصوفي الذي بَني عليه نصه الروائي.
2. عمد الروائي إلى تبني المعتقد الصوفي؛ الذي من وجهة نظره مظهرا فطريا تعيشه البشرية جمعاء، وهو ما تجلى في مظاهر وسلوكيات ومعتقدات الشخصيات الروائية لحظة دخلوها عالم التصوف.

---

[30] -الرواية، ص:66.

[31]- الرواية، ص: 95.

3. إن ما جعل هذه الرواية تدخل في إطار النصوص الروائية التجريبية، هو اشتغالها على التراث الصوفي الذي استحضره الكاتب وفق رؤيته الخاصة، وألبسه إلى شخصياته الروائية ليخرجها من عالمها المادي إلى عالمه الروحاني.
4. تظهر معالم التجديد في رواية "سفر السالكين" من خلال مواقف وخطابات الشخصيات الروائية الموظفة داخل النّص الروائي، والتي حاكت التراث الصوفي وتشبّعت بقيّم وسلوكيات المتصوفة واتبعت طريقهم؛ فقد استطاع الروائي محمّد مفلاح تحميل نصه الجديد العديد من المعاني والدلالات الجديدة التي تبرز نمطية وحياة الشخصيّات المتصوفة الحاملة لمعتقدات المتصوفة،وذلك بإتباع المنهج الصحيح الذين يسلكه العبد للوصول إلى محبّة الله.
5. لقد ذكر الكاتب في الإهداء "إلى الراحلين السبعة ":ليختتم روايته بقوله "وداعا يا أحبتي وداعا. تمنيت لو تأخر سفركم ولكنه القضاء والقدر"32 وكأنها إشارة إلى أن الرواية تختزل سفرا مباركا دون رجعة؛ هو سفر تلتقي فيه أرواح السابقين مع اللاحقين كعربون محبة المتصوفين الذين تتقارب أرواحهم رغم تباعد الأزمنة وتباين الأمكنة .

[32] الرواية، ص: 5.